هل تريد أمريكا حقا رأس صدام حسين؟

17-9-2002

هيثم بن جواد الحداد

ما هي الخيارات التي يملكها صدام؟ عودة المفتشين بدون شرط، الإعلان عن برنامجه التسلحي، مزيد من التنازلات ...كل هذا لا يجدي، أمريكا لا تريد ذلك، تعرف أمريكا أن صدام حسين ونظامه أضحى مشلول القوى، وأنه عاجز في الوقت الراهن، وفي المستقبل القريب عن تمثيل أي تهديد حقيقي للأمن في المنطقة، وللسياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط بل العالم كله، حتى لو قلنا بعدم عجزه، فلم كل هذا القلق الأمريكي على مستقبل المنطقة، لكنّ هذا كله لا يفتح شهية الولايات المتحدة الأمريكية على ضرب العراق والإطاحة بصدام. إذا، فلا يلوح في الأفق خيار حقيقي لصدام لتجنب الضربة الأمريكية، فمذا عساه يفعل؟

بقلم **هيثم بن جواد الحداد**

فماذا تريد أمريكا من ضرب العراق، أو من تغيير الرئيس العراقي؟

هل يمثل الرئيس الحقيقي تهديدًا حقيقيًا للولايات المتحدة حتى تحرص هذا الحرص الشديد على تغييره. هل هو بهذه الخطورة حتى تجند الولايات المتحدة الأمريكية كل وسائلها الشيطانية لإقناع العالم بأن صدام حسين يمثل تهديدا حقيقيا للعالم أجمع، ولدول المنطقة، ثم لشعبه، من خلال تطويره لأسلحة الدمار الشامل، وأن الخير لشعوب الأرض أن تعيش بدون هذا الطاغية الدكتاتور صدام حسين، وأن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت على عاتقها حماية شعوب العالم المسكينة المقهورة، من المستبدين، والظلمة، والطغاة ... ومهما يكن من أمر، فقد أضحت هذه اللعبة سخيفة مكشوفة للعالم، ولذلك فإن معظم دول العالم عبرت عن رفضها بشكل أو بآخر عن هذه الضربات.

لكن، لم هذا الإصرار العجيب الغريب من الولايات المتحدة في هذا الوقت على إسقاط الرئيس العراقي سيء الذكر صدام حسين، هل من جديد في أمره، هل من جديد في أمر أسلحة الدمار الشامل؟. قد يذهب كثير من المحللين إلى بعض التحليلات المعقدة حول هذا الأمر، وقد يستندون إلى بعض الحقائق، أو الوثائق، أو الإحصائيات والأرقام.

لكني أظن أن انكشاف عوار السياسة الأمريكية أضحى يجعل مهمة المحلل سهلة عند تحليله لما يتعلق بالسياسة الأمريكية، وأهدافها من تحركاتها المشبوهة، وأغلب تحركاتها، بل كلها مشبوهة. ولذلك فكأني بالأهداف الأمريكية من ضربها للعراق، وتغيير الرئيس العراقي، تظهر نفسها وتتطاول برأسها حتى يراها القاصي والداني، ولست أشك في ذلك فلم تعد تلك الأهداف على الرغم من ازدياد وقاحتها لم تعد تطيق الخجل أو الاستحياء، وملت التلميح، فعمدت إلى التصريح، وجاهرت بكل قبيح.

ويمكنني أن أرى ثلاثة أهداف رئيسية لهذا العمل الذي ستقدم عليه هذه الإدارة الطاغية:

1- إخفاء إخفاقها المريع في أفغانستان، صحيح أن أمريكا أفلحت في إزاحة نظام طالبان عن الحكم، واستبدلته بنظام عميل لها كما تريد، إلى أن هذا النظام الجديد بلغ من الهشاشة حدًا يجعل المحافظة عليه أمرا بالغ الصعوبة، فمحاولات الاغتيال لزعيمة تزداد قوة، وكثرة.

1- 1 وفي الوقت نفسه فقد نجح ما يسمى بتنظيم القاعدة من زرع الرعب في الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق زرع فقاعات هوائية من التهديدات، تشرع لها أمريكا في اتخاذ احتياطات أمنية مريعة، بطاريات صواريخ حول المباني الهامة، إجراءات أمنية صارمة في المطارات، ومثلها عند الجسور، وأشد منها في سفاراتها في الخارج ... إلى نهاية تلك السلسة الطويلة من تلك الإجراءات.

1- 2 وما أن يطل الشيخ أسامة بن لادن أو أحد معاونية من خلال شريط فيديو أو مكالمة هاتفية إلا وتتفق أذهان القوم عن تحليل ذلك الشريط وتلك المكالمة، وهل فيها إشارة لخلايا نائمة للقيام بعمليات إرهابية جديدة ...

1- 3 والحقيقة يا أيها السادة إن الإنسان ليعجب من أولئك المسلمين الذين ترتعد فرائصهم من التهديدات الأمريكية، وهم يرون أن أمريكا هي التي ترتعد فرائصها من حفنة من المسلمين محاصرين من كل مكان وفي كل مكان.

2- تمارس أمريكا مزيدا من الضغوط على دول الخليج، وتطالبهم بمزيد من التنازلات، على صعيد مناهج التعليم، مزيد من التهميش للمؤسسات الدينية كانت رسمية أو غير رسمية، مزيد من التضييق على أنشطة الجمعيات الخيرية، وفي السعودية مزيد من إفساد المرأة، ومزيد من إجراءات الاختلاط بين الجنسين ...

2- 1 لكن الدول الخليجية لسبب أو لآخر عجزت عن تلبية كل هذه الطلبات، لا سيما إنها بدأت تشعر أن التنازل عن شيء، لا يجلب إلا طلبات أمريكية بمزيد من التنازلات، وهكذا في دوامة لا تنتهي ...

2- 2 لكن هذا يزعج العم سام الذي أوحى له تاريخه مع تلك الدول إنه وهي كسيّد وعبيد، فكيف يتأخر هؤلاء في الاستجابة لإملاآتي بل وأوامري ...

2- 3 فلا بد إذن من التلويح لهم بالعصا، ولا بد هذه المرة من تكون العصا مؤلمة وعلى أشد المواقع وجعا، الكرسي، نعم الكرسي، كرسي الحكم، فلا بد من إزاحة الرئيس العراقي عن الكرسي، وإياك أعني واسمعي يا جارة.

3- على صعيد أم القضايا، القضية الفلسطينية، لقد أدركت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل أن الانتفاضة الفلسطينية حققت مكاسب كثيرة جدا، صحيح أنها منيت بخسائر كبيرة، لكن اسرائيل عجزت عن إخمادها، أو على الأقل التحجيم من آثارها، فمازال الفلسطينيون قادرين على الضرب في العمق الإسرائيلي رغم كل هذه الحرب الطاحنة ضدهم، وكل هذه الإجراءات الجنونية الاحترازية.

3- 1 وهاهي خسائر إسرائيل تزداد يوما بعد يوم، فمعدلات الهجرة الطوعية سجلت أعلى درجات الانخفاض، في مقابل ازدياد مطرد في الهجرة العكسية، والاقتصاد الإسرائيلي شبه منهار من الناحية الحسابية النظرية، والأمن وهو عماد الحياة في كل مكان، حل محله الخوف والرعب

3- 2 فلا بد من إحباط شعور المقاومة عند الفلسطينيين، ومن أقوى تلك الوسائل إشغال الرأي العام بقضية من قضايا المنطقة تستحوذ على الاهتمام، ثم التذكير بالهيمنة الأمريكية على المنطقة، ومزيدا من الإهانة للأنظمة الحاكمة في المنطقة.

3- 3 وعندئذ سيفهم الفلسطينيون الرسالة، ويسقط في أيديهم، ويتسلل اليأس إلى أفئدتهم، وعندئذ تخمد مقاومتهم العسكرية، والمعنوية لكل ما يملى عليهم، وتفرض إسرائيل التسوية التي تريدها على الجميع. كتب كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {216}

لا أتوجه بهذه الآية طالبا من المسلمين تطبيقها، بل أتوجه بها للمسلمين طالبا منهم أن يروا واقعها من خلال تطبيق الولايات المتحدة الأمريكة لها. لعلماء النفس والاجتماع كتابات كثيرة حول فوائد الحروب للأمم، لكن الحَوَر الذي في النفوس والجبن الذي جبلت عليه، وحب الدنيا الذي بلغ النخاع، كل هذا يعمي الأبصار عن تلك الفوائد، ويحبس الأبدان عن القيام بها، مهما كانت الفوائد التي تجنا من أجلها. ولخص القرآن ذلك وأكثر منه في تلك الكلمات المعدودات. وأمريكا طبقت الآية أكثر من غيرها، بل أكثر من المسلمين أنفسهم. فأمريكا لا تشعر بالراحة إلا بوجود عدو، لكنها –تماما مثل الكفار – لا تجرؤ على قتال الأقوياء، وإن قاتلت فإنها تقاتل من الجو فقط، ولا تقدر على النزال الأرضي، والظاهر أنها ما نازلت أحدا على الأرض إلا وهزمت.

صدام، وخيارات الصدام: ما هي الخيارات التي يملكها صدام:

عودة المفتشين بدون شرط، الإعلان عن برنامجه التسلحي، مزيد من التنازلات ...كل هذا لا يجدي، أمريكا لا تريد ذلك، تعرف أمريكا أن صدام حسين ونظامه أضحى مشلول القوى، وأنه عاجز في الوقت الراهن، وفي المستقبل القريب عن تمثيل أي تهديد حقيقي للأمن في المنطقة، وللسياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط بل العالم كله، حتى لو قلنا بعدم عجزه، فلم كل هذا القلق الأمريكي على مستقبل المنطقة، لكنّ هذا كله لا يفتح شهية الولايات المتحدة الأمريكية على ضرب العراق والإطاحة بصدام. إذا، فلا يلوح في الأفق خيار حقيقي لصدام لتجنب الضربة الأمريكية، فمذا عساه يفعل؟

صدام يهدد ويتوعد، ويرغي ويزبد، هذه المرة لن تكون كالمرة الأولى، ولكن كيف؟ لا يوجد ما يغير الاستراتيجية السابقة، ولا يوجد ما يجعل مهمة الولايات المتحدة الأمريكية ومن معها هذه المرة أصعب، ستحلق الطائرات، وستلقي أطنان القنابل حتى تهل ما تبقى من الحرث والنسل، ومهمتها هذه المرة أسهل بكثير، فلا دفاعات جوية ذات فعالية، ولا طائرات يمكن أن تناور، بل ولا تهديد حقيقي بأسلحة الدمار الشامل، ولا بالأسلحة الجرثومية ...ستضرب، وتضرب، وتضرب والعالم يتفرج ...ولكن ماذا عساه أن يفعل؟

هنالك من يقول بأن صدام عميل خائن، هدفه تدمير العراق ماديا ومعنويا ... وهناك من يستهزيء بهذه النظرية. ومهما يكن من أمر ... فإن كان جادا حقيقة في تهديده ووعيده فعليه أن يضرب، قبل أن يُضرب، لا تسل عن كيف يضرب، فعند صدام الخبر اليقين، إن كان جادا كما قلنا ...

لقد بت اعتبر أن من يواجه الولايات المتحدة الأمريكية في أي عمل عسكري يكون جادا في المواجة إذا تجنب ضرباتها الجوية بضربات أرضية خاطفة، فإذا لم يفعل ذلك مع مقدرته فلا شك أنه، إما خائن، أو جبان، وكل واحدة أسوء من أختها. وكالعادة، فإن خيارًا مثل هذا يعتبر جنونيا، ومخالفا لجميع الأنظمة والأعراف والقوانين، ومنتهكا للأعراف الدولية، وخارجا عن الشرعية .... وما إلى ذلك من قائمة الشتائم السياسية العسكرية ...

أما أن ينتظر صدام الضربات الجوية، لتدمر بنيته التحتية، والفوقية، ومن ثم يخرج يجر أذيال الهزيمة، ويبدأ في تحمل أوخم النتائج، فيحاصر شعبه لأكثر من اثنتي عشرة سنة، ويهلك منهم أكثر من مليون ونصف المليون، ويموت كل شهر من أطفالهم كل شهر 6000 طفل على أقل تقدير ومن نجا من الموت فلن ينجو في الغالب من آثار اليورانيوم المنضب المزروع على الأرض العراقية، ويتدهور الإقتصاد العراقي فيتحول العراق من دولة غنية، إلى دولة فقيرة و و ...فهذا كله هو محض العقل، والحنكة السياسية ... ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولست أدري، ولا أرجم بالغيب، ولكن أخشى أن نعايش مرة أخرى هذه المأساة الفظيعة لمدة سنوات طويلة أيضا ...

الدول العربية ومعارضة ضرب العراق:

هذه القضية ليست من صلب مقالتي، وإنما هي من حواشي الحواشي، لأنني لم أعتقد أبدا أن الدول العربية ستكون جادة في معارضتها لضرب العراق، مع قناعتي بأن كثيرًا منها بدأ يدرك ما تنطوي عليه هذه الضربة من خطورة فادحة على المنطقة كلها.

لكن الدول العربية، مغلوبة على أمرها، أو لنقل: ليس لها من أمرها شيئا، وليت قومي يعلمون ذلك، لست أدري متى يقتنع الناس بأن الدول العربية لا تخرج عن السياسة الأمريكية قيد أنملة، لا سيما في المهمات، لقد فرح الكثير حينما سمعوا تصريحات بعض المسؤولين في بعض الدول العربية المعارضة لضرب العراق، وأقدم بعضهم بالإشادة بتلك الأنظمة، وأنها استفاقت من غفلتها، وأنها أصبحت تسير في الاتجاه الصحيح ولذلك ينبغي الالتحام معها وعدم انتقادها ولا الإنكار عليها ... قد تعارض دول عربية ضرب العراق، إما لأنها فعلا تريد هذه الضربة لما تنطوي عليه من المخاطر غير المتناهية كم ذكرنا، ولأن تلك الدول أدركت حجم تلك الأخطار بعد الضربة الأولى في 91. وقد تعارض دول أخرى من أجل المناورة السياسية مع الشارع العربي، ومع الأنظمة العربية الحليفة. وربما تعارض دول أخرى لكرهها للسياسة الأمريكية.

ومهما يكن من أمر، فإن جميع هذه الدول ستركع خانعة، بعد أن ينخلع قلبها إثر أول هجوم أمريكي على العراق . وقد أدركت بعض الدول العربية أنها "ليست بقدر المسؤولية" أي مسؤولية المعارضة، وأنها "ستتفشل" إذا عارضت الضرب، ثم وقع الضرب، فبدأت تنقض غزلها، فأصبح بعضها يصرح بأن الضربة إذا جاءت من خلال الأمم المتحدة فإنها ستأيدها، لأنها تسير مع الشرعية الدولية، وقرارات الأمم المتحدة. وبعضها أصبح يصرح بأنه لا بد للعراق من الاستجابة لقرارات الأمم المتحدة وعودة المفتشين الدولين، وإلا فإن العراق يجب أن يتحمل النتائج ...

كأني بهؤلاء مثل فرعون قد استخف قومه فأطاعوه، هل استخففت عقول شعوبكم يوم أن قلتم الأمم المتحدة، من المصائب أنكم لا تعلمون أن الصغير من أقوامكم يعلم أن ما يسمى بالأمم المتحدة، هو وجه آخر للولايات المتحدة. بالله عليكم أيها السادة في مشارق الأرض ومغاربها، هل تتوقعون أن تكون الدول العربية جادة في معارضة الهجوم الأمركي ؟

لست أدري كيف يمكن لأحد أن يتوقع ذلك، هل يتوقع أحد من بعض الدول العربية التي لا يتجاوز عدد سكانها عدد سكان أحد أحياء مدينة نيويورك أن تقاوم السياسة الأمريكية، أم هل يمكن لدولة عربية تعيش على القمح الأمريكي فعل ذلك، أم دول عربية لا تثق بجيشها لحماية نظامها، كما تثق بالجيش الأمريكي. على كل حال، فقد أخبرنا التاريخ أن قرار مثل هذا لن يكتب له الحياة، وإن كتب له الحياة فلن يكون له أي تأثير على مجريات الأحداث، وسيكون من الهشاشة التي تجعلنا لا نفكر في تأثيره، بل ربما نفكر في إبقائه حيا، ولو دون حراك.

وأخيرا:

وباختصار لأني قد أطلت، ففي ظني أن الهجوم الأمريكي على العراق، لا يدفعه إلا الله جل وعلا إذا ابتهل المسلمون الصادقون في التضرع والدعاء لله جل وعلا أولا وقبل كل شيء. ثم قد يكون للتحرك الشعبي العارم، سواء بالمظاهرات الضخمة ضد هذه الضربة في جميع الدول، مع زخم إعلامي رهيب، بإظهار معارضة هذه الضربة، سواء بالكلام اللين أحيانا، أو بغيره أحيانا أخرى، وما يدعم ذلك من مناصحة، ومكاتبة، ومكالمة، وترغيب، وترهيب. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.